يوحنّا قمير

مِنْ كُلِّ وَادٍ شَذاه



منشورات
جامعة سيّدة اللويزة
NDU PRESS

مِنْ كُلِّ وَادٍ
شَــذاه

مِنْ كُلِّ وَادٍ شَذاه

منشورات : جامعة سيِّدة اللويزة©
الطبعة الأولى : ٢٠٠٣
القياس : ١٤,٥ × ٢١,٥
الغلاف : جان قرطباوي
تنفيذ : مطابع معوشي وزكريّا
ISBN : 9953-418-83-7
9789953418834

يوحنّا قمير

مِنْ كُلِّ وَادٍ شَذاه

NDU PRESS
منشورات
جامعة سيّدة اللويزة

من كلٍّ وادٍ شذاه

من كلّ وادٍ شذاه،

لا «من كلّ وادٍ عصاه»،

كما يقول المثل.

وما الشذا نداءً أزهار،
دعوةً إلى جوار، وحوار،
ونجاوى بأسرار.

طيوبُ هذا الكتاب بيانُ ألوان،
سوانحُ أيّام، بل أعوامٍ،
أصداءُ أحداثٍ، أو نسيجُ تأمّلات،
فاقرأْ، ولا تنقمْ،
فالتنوّعُ حائلٌ دون الملل،
وتتنازعُ فيه الأذواق.

المقامة اللبنانيّة

حدّثنا سامي بن حبيب قال:

كان لي جار اسمه عماد، جار عليه الدهر والعباد، فشبّ مُعدِماً فقيراً، يفترش ليله حصيراً، ويلعن بؤسه مصيراً.

وضاقت به سبلُ العيش، وجاز عمرَ الحداثة والطيش، فجلس يقلّبُ أمره، يبحثُ كيف يغلبُ دهره.

أيذهب إلى أقرب دير يلبس العباءة والسَّير، يأكل الطُلَمَ والمجدَّرة، وينتظر نوم المقبرة؟ ولكنّه يجهل القراءَة ويرغب عن لون العباءة! سيبقى في الدير آخرَ الرهبان، ويلفّ جسمَه بأقتم الألوان، ومن يدري بعدُ ما تخبّئ الجدران؟

أيقصد بعض المهاجر، يتاجر ويغامر، فيربح المال الوافر، ثمّ يعود إلى الضيعة، فيجمع من أهلها شيعة، ويبني له أفخم دار، ويعيّن الناطور والمختار؟ ولكن من يدينه مالاً للسفر، ومن يقيه معاطبَ الخطر، وكيف يتعلّمُ اللسان، ويجدُ رأسَ المال والأعوان، ويتركُ وطنَه لبنان؟

أيلجأ إلى نائب أو وزير، وكلاهما عليمٌ قدير، عساهما يجدان له وظيفة، مريحة ونظيفة، يكسب بها ولا يتعب، ويقضي أيّامه يلعب؟

ولكنّه لدى الساسة مجهول، وزعيمُه عنه مشغول، إن يسألْ مثل هذي النعمة يجدْ لدى المسؤول النقمة. وهو بعدُ ما تعلّم، فكيف يُمسِكُ القلم؟ أيدخلُ في سلك الموظّفين ليكثّرَ جيشَ الجاهلين؟

ومرّت في خاطره مهنٌ يلقى بها عَوادي الزمن: مرّ الحدّاد والسكّاف، والنجّار والندّاف، ومرّ الرفش والمعول، وحوكُ القطن في المعمل، مرّت شتّى أنواع الكدّ، من إرث الوالدِ والجَدّ، وكلُّها أعمالٌ مرهقة، من معول إلى مِطرقة، يأباها طبعُه الملول، ويحتقرُها جيلُنا الكسول!

وأخيراً عنّت له حرفةٌ بدت من ربّه رأفةً، لا همَّ فيها ولا عناء، ودرُّها العزّ والرخاء:

احملْ مسدّساتٍ ومُدى، وهزَّ في وجه جبان يدا، هدّدْ وأطلقِ الرصاص، ولا تخشَ السجونَ والقصاص، حينئذٍ يُسرِعُ الزعيم، ويُسرِعُ النائبُ الكريم، يحميانك من عقاب القانون، ويغلقان في وجهك السجون، يغدقان عليك المال، ويعقدان الآمال، فأنت السلاحُ المرهوب، وأنت مشدّد القلوب.

اضربْ واقتلْ واسلبْ، ومنْ شرطيّ لا تهربْ، فالسجنُ لمثلك مغلَق، والعدلُ يقضي بأن تُطلق.

وحمل عماد القضيب، والمسدّسَ الرهيب، وعقد الشاربَ المفتول، ومشى كالسيف المسلول، وصار في القوم ذا شأن وراي: صار بفضل ربّك قبضاي!».

آذار (١٩٥٩)

يا موسى لبنان(١)

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطلَ السحر والساحرُ

أمّا الساحرُ فكلُّ ظالم أو مستغِلّ، في لبنان، من الجهاز الحاكم – السابق أو القائم – إلى التاجر... إلى كلّ سارق، أو ساكتٍ عن السرقات.

وأمّا السحرُ فتعاويذُ الوعود يخدّرُنا بها السَحرة، كلّما جدّتْ مطالبُ تعود التعاويذ.

وأمّا موسى لبنان فتعرفُه، لأنّه نبيُّ الساعة.

واسمحْ لي، يا سماحة الإمام، أن أسأل:

١– أقسمتَ باللّه وبلبنان وبآلام المعذَّبين، وأقسم معك آلافُ الناس، أنّك ستناضل حتّى تقضي على المظالم. فهل أنت مصمّمٌ على السير، ولو انتهتْ بك الطريقُ إلى الاستشهاد، كما تقول؟ إنْ

١– ظهر هذا الكتاب المفتوح في جريدة النهار، في ١٧–٥–١٩٧٤.
ولم يُجب سماحته عن الكتاب في الصحف، بل آثر اللقاء على عشاء، وبحضور دولة حسين الحسيني.
ولم يُجب، في ذلك اللقاء، عن كلّ أسئلتي، بل أفهمني أنّ لا عنف غاندي سلاحه. ثمّ اقتصر الحديث على أوضاع لبنان، ولا سيّما على استئثار الموارنة برئاسة الجمهوريّة.

كان ذاك – وأصدّق أنّه ذاك – فبوركتْ بلادي، لأنّها أرسلت، ساعة الخطر المتفاقم، الرسول المنقذ، وبوركتَ، يا رجلَ اللّه.

٢– أتعتقد أنّ المعركة محصورة بين شيعيّ وشيعيّ – بين معارض من الشيعة وحاكم – أم هي معركة لبنانيّة شاملة، معركة المظلوم مع الظالم؟ وإنْ كنت تعتقد ذاك – كما يظهر في خطاب صور وقسمها – فلماذا لا تعطي القضيّة حجمها الحقيقي، الحجم اللبنانيّ العام، ليستطيع كثيرون أن يواكبوا مسيرتك، ويناضلوا معك من أجل إنقاذ لبنان، انقاذ المظلوم والظالم معاً؟

٣– أمرتَ ألاّ يُحمَل السلاح، في مهرجان صور، فحملوه. وأمرتَ ألاّ يُطلقوا الرصاص فأطلقوه.

فهل يرضى القائد عن هذا العصيان؟ وهلاّ تكون الطاعة القصوى ضروريّة لنجاح المعارك؟ نريدك قائداً يُطاع، لتصل إلى النصر، إلى نصرك أنت، لا إلى نصر من يستغلّ الرسول، نصرِ من إذا حكم ظلم.

٤– ما سلاح المعركة؟

أهو ثورة مسلّحة دمويّة، كما يُنذِر السلاح المحمول، ورصاص النقمة، وبعض تعابيرك؟ وهل تعتقد أنّ لديك من الرجال والسلاح، أو أنّه سيُصبح لديك، ما يمكّنك من الظفر؟

أم سلاحك اللاعنف على غرار غاندي وكنغ، أي الكلمة ومؤيّدوها، وحلول تتصدّى لمشكلات الجنوب، وتتعدّاها لتعالج مشكلة الظلم والاستغلال والعبث في كلّ لبنان؟

٥- هل فكّرت في البديل؟

هَبْك استطعتَ - بأيّ سلاح - أن تُسقِط من على العروش، بل أن تهدم القصور على الرؤوس، فمن أعددتَ للكراسي؟

لا أحسبُك واهماً، مؤثراً ساسةً على ساسة، فالبضاعة - لسوء الحظّ - واحدة، ومشكلة لبنان الأُولى مشكلة انسان.

أبينَ مؤيّدي موسى الصدر من هو من طرازه، أو من إذا تسلّم الحكم اهتدى بهديه، والتزم بمبادئه؟

أم إنّ موسى الصدر يسعى إلى تكوين قوّة شعبيّة ضخمة وثابتة يُكره بها الحاكم - أيَّ حاكم - على أن يعفّ ويجدّ، ويقيم العدلَ ويصون الكرامات؟

طرحتُ هذه الأسئلة، أيّها الإمام، لا لأُحرجك، أو لأقدّم سلاحاً لمناوئيك، فأنا معك، لا عليك، فكري معك، وقلبي معك، وتجربتك الفذّة غالية عليّ، غالية جدّاً، وما أشدّ إشفاقي من إخفاقها.

ولكنْ طرحتُها لأوطّد من عزيمتك في معركة العدالة والكرامة، ولضبط المعركة وتسديد الخطى.

وطرحتُها للخروج بالقضيّة من إطارها المحدود إلى الإطار العام، من قضيّة جنوب وبقاع إلى قضيّة كلّ لبنان، لنجد معاً الحلّ الجذريّ الشامل.

وطرحتُها لتوضيح الطريق، توضيح الأهداف والوسائل، ليعرف المحارب من يحارب، وبأيّ سلاح يحارب، وما مصير المعركة؟

فإلى مهرجان بيروت، يا موسى لبنان، إلى مهرجان يضمّ كلّ مظلوم في لبنان، وكلّ ثائر على الظلم والذلّ، لنسمعك تعطي القضيّة حجمها الكبير، وتقترح لها الحلول – أو تدعو إلى التداول لايجاد الحلول –، تُوضح الأهداف والوسائل، وترسم لنا خطى الخلاص.

نريدك بحجم لبنان، ونحن بانتظارك القريب في بيروت – أو في حزامها – وننتظرك بعد ذاك في جبيل، والبترون، وعكّار.

من أصداء حربنا الأهليّة

مجانين

كانت المعارك في بيروت على أضرى ما يكون،
وكان النهار صحواً رائعاً، وكان المؤلّف على ربوة
تطلّ على البحر، وعلى بيروت.

تهدّمي، يا بنايات: أكواخاً وقصوراً، فنادقَ ودارات، كلّ
البنايات! تهدّمي، واحترقي!

واحسبْ زلزالاً قوّضَ بيروت، أو بركاناً تفجّرَ وأحرق، أو موجاً
طمى وأغرق!

وموتوا، يا أبناء لبنان أطفالاً وكهولاً، شبّاناً وفتيات، كلّ
الميتات، أبشعَ الميتات!
ويسلمُ؟
يسلمُ البحر، والشمس، الجبل، والسماء.
وتسلمُ سنابك العاج في الكهوف، في جعيتا وغير جعيتا.
وتسلمُ بعلبكّ وصور وبيبلوس.
ويسلمُ وادي أدونيس، ووادي القدّيسين.
وتسلمُ حريصا، والأرز، واللقلوق، وصنّين.

ويسلمُ الشاعر والنحّات والرسّام، وفكر يبدع، وراهبة تصلّي.

وتسلمُ جوْرجينا وفيروز، الوردُ والياسمين، متعتا الأذن والعين.

ويسلمُ الساسة؟... لا، لا يَسلمَنَّ منهم أحد... ليبقى هذا البلد.

تهدّمي، يا بنايات، تهدّمي واحترقي!

وموتوا، يا أبناء لبنان، موتوا كالمجانين!

٩-١-٧٦

ملجأ الملاجئ

تولولُ القذائف في الأجواء، ويحومُ شبح الموت، فتهرعُ إلى زاوية أو ملجإ تتّقي قذيفةً قاتلة، أو شظايا قذيفة.

وتطولُ الحربُ في لبنان، تتجدّدُ المعارك، فتسهرُ في بيتك، أو في ملجإ بيت، يعصاك النوم والراحة، ويستبدّ بك الخوف والقلق.

ويَعسرُ العمل والتحصيل، وتندرُ السلع، وتغلو الأسعار، ويطغى الكذب السياسيّ، وتلتبسُ المصائر، ويتعذّرُ تبيّن السلوك، وسبل السلامة، تُسَدُّ في وجهك المخارج، وتُهيجُ منك الأعصاب.

وتسألُ، تسأل ما تعمل.

إلزمْ بيتك قدْرَ الطاقة، أقِمْ في المخابئ، وتسلم أو لا تسلم.

وإنْ تسلمْ، وما رافقتك السلامة، الجأْ إلى نفسك، إلى كتابك وفكرك ويراعك، إلى ملجإِ الملاجئ.

اقتصدْ في قراءة الصحف، وسماع الأخبار، واغرقْ في قراءة كتاب، أو تأليف كتاب، عشْ في عالمك تنسَ ما فوقك وما حولك، وتسهُ عمّا تردّدُ دارُك من أصداء.

انزحْ عمّا حواليك إليك تحافظْ على هدوء أعصابك، وعلى أكثر طاقاتك، تحتفظْ بصفاء الرؤيا، واعتدال الأحكام، وإنصاف في التقدير، فلا افراطٌ ولا تفريط، لا لامبالاة، ولا هوس... وتنتظر هدوءَ العاصفة.

أنت خيرُ ملاجئك، أقربها وأيسرها، فالجأْ إلى نفسك تصرْ أحظى بالسلامة، سلامةِ نفسكَ وجسدكَ. وإن يُقَلْ: «العقل السليم في الجسم السليم» قلْ: بلِ الجسمُ السليم جسمُ عقلٍ سليم.

آمن باثنين

إنْ يقصِفِ المدفع، ويئزَّ الرصاص، ويخفِ الشجاع، ويهربِ القادر، فامكثْ أنت حيث أنت، على الرغم من الخطر، من كلّ الأخطار.

وإن يستبدَّ القلق بالرؤوس، ويُفسِدْ على العقل هداه، فظلَّ أهدأ ممّا كنت، واركن إلى حكم العقل ورؤاه.

وإن ينطوِ كلٌّ على ذاته، ولا يعبأْ بغير حياته، وينجُ إلى أيّ مكان، خارج لبنان، فلا تبرحْ وطنك، ولا تهجرْ أهلك وبني قومك، فما أنت أغلى، وإنْ أغنى.

وإنْ يدبَّ الحزنُ في النفوس، وتغمرِ الكآبة، ويعمَّ الشلل، فافرحْ وغنّ واعملْ، واقضِ حيّاً، لا ميتاً، إذا ما حُمَّ القضاء.

وإنْ يخيّمِ الظلام، وتُسَدَّ السبل، وتَفشلِ الحلول، ويُفقَدِ الأمل، فلا تيأسْ، ولا تستسلمْ، وآمنْ بأثنين:

آمنْ بالانسان، في كلّ زمان ومكان، فمهما طغت قوى الشرّ فيه، فإنّ قوى الخير في النهاية أقوى.

وآمنْ بلبنان وطناً لا كالأوطان – وطنَ الانسان الانسان –، فمهما كفر أهله به، ومهما باعد الغبن والخوف، وباعد الأعداء، سيهزم الايمانُ الكفر، والحبُّ البغض، ولن يندبَ العربُ لبنان، لن يسألَ أبو بقاء ثانٍ:[1]

أعندكم خبرٌ من أهل أندلسٍ؟ فقد سرى بحديث القوم ركبان!

٩-٤-٧٦

(١) هو أبو البقاء الرنديّ الذي رثا الاندلس بقصيدة مطلعها:

لكلّ شيء إذا ما تمّ، نقصانُ فلا يُغرَّ بطيب العيش انسانُ

سنندم!

سنندم جميعاً، لأنّا تخاصمنا، وتقاتلنا.
قُتِل منّا أقوياء، وقتِل ضعفاء،
قُتِل أغنياء، وقتِل فقراء،
قُتِل أذكياء، وقتِل أغبياء،
قُتِل رجال، وقتِلت نساء،
قُتِل شيوخ، وقتِل شباب وأطفال.

هذا فُوجئ برصاصة أو قذيفة، وذاك بانفجار سيّارة، وثالث بانهيار سقف.
وكم رأينا من بنايات تنهار، ومن دماءٍ ودمار!
أريافنا أقفرت من الفرح، ومدننا انزوت من الرعب!
لباسنا فقد بهجته، وطعامنا تضاءلت ألوانه، والحرمان يُنذِر بالجوع.

ومن أجل ماذا كان كلُّ هذا؟
أمنْ أجلِ النصر؟ من الذي حقّق نصراً، ومن لم يُبلَ بهزائم؟
أمن أجل المساواة؟ أجل لقد تساوينا في البلاهة، والعمالة، والدمار.
أمن أجل الضمانات؟ وهل بقي شيء مضموناً؟ هل بقي الوطن، والتعايش، وهل نبقى نحن؟

أم من أجل المشاركة؟ وما بقي لنتشارك فيه؟ وهل يبقى المطالبون؟

وغداً، أو بعد غد، سنؤوب إلى رشدنا، أو سنُضطرّ إلى ذلك، ونتّفق على نظام جديد – وقد يكون أسوأ – وتنتهي الحرب. ونسأل: أمن أجلِ نظام جديد تخاصمنا، وتقاتلنا؟! أما كان الوصول إليه ممكناً دون قتال؟

أجل سنندم جميعاً، فهلاّ استعجلنا الندامة، ما دام على أرضنا من يندم؟!

١٩٨٧-٦-٢٦

أبجديّتنا ووحدتنا

يا لغةَ فينيقية، لغتي اللبنانيّة،
يا حروفاً بكماءَ تحت الأقبية الرصاصيّة،
يا لغةَ عصرنا الذهبيّ، أصلَ كلٍّ أبجديّة!

من آدمَ استُلَّت حوّاء، ومن الأمواجِ ڤينوس،
ومن خاصرة إلهٍ جريح، من دمِ أدونيسَ الطريء،
استلّت لغتي الحروف، وسبكتِ الكلمات.

يا لغةَ بلادي،
يا طلّةَ السفينة الأولى على أفقِ العالم القديم،
بالشموخ نفختِ أشرعةَ جدودي،
أشرعتَهم، والمغامرات.

في جهاتِ العالم الأربع بذرتِ الفكرَ، لغتي،
بَذْرَ القمحِ في ذهول الحقول،
وتبذيرَ اللّهِ في قلب الليل العميق،
يُبذِّر بألماسه الخالص!

وإنْ أذكّرْ بني أمّي بجَدّنا الفينيقيّ،

فلأنّا كنّا، في فجرِ التاريخ،
وقبل أن صرنا مسلمين ومسيحيّين،
كنّا شعباً واحداً، مجداً واحداً،
وعلينا، إذ تطوّرنا،
– طوّرَنا إيمان أجدى –
أن نظلّ نتحابّ، كما كنّا،
في عهدِ وثنيّتنا!...

(نقلاً عن «الجبل الملهم للشاعر شارل قرم. العنوان غير وارد في الأصل).

نقــلان

١- نشيد العزم

إنْ يُهدَمْ ما بنيتَ في عمر، وقويتَ على مرآه،
ما شكوتَ بكلمة، ثمّ عُدتَ تشيدُ البناء؛
وإن تخسرْ في شوط ما ربحتَ في مائة،
ولمْ تصدرْ منك حركةٌ أو حسرة؛
وإنْ تُحِبَّ، ولم يُجنَّك حبُّك،
وتقوَ، ولم يقسُ قلبُك،
وإنْ تُبغَضْ، ولم تُبغِضْ،
ولو قاومتَ ودافعت.

وإنْ يُحرِّفِ الأوغادُ أقوالَك
ليُثيروا الحمقى، وتُغضِ على التحريف،
وإنْ افترتْ عليكَ الكذبَ ألسنتُهم المجنونة،
وأغضيتَ فما افتريت؛

وإنْ يُصفّقْ لك الشعب، وتحافظْ على وقارِكَ
وإنْ تظلَّ من الشعب، ولو نصحتَ الملوك؛
وإنْ تؤاخِ كلَّ إخوانِك
ولم يستأثرْ أحدُهم بك؛

وإنْ تُفكِّرْ، وتُراقبْ، وتعرِفْ،
ولم تُصبحْ شاكّا أو هدّاما؛
وإنْ تحلمْ، ولم يستعبدْكَ حلمك،
وتُفكِّرْ، ولم يستنفدْك فكرُك؛
وإنْ تقسُ، ولم تغضبْ،
وتشجعْ، ولم تتهوّر؛
وإنْ تجدِ السبيلَ إلى الصلاح، وإنْ تجدْه إلى الحكمة،
وتسلمْ منَ الوعظِ، ومنَ الادّعاء.

وإنْ تلقَ النصرَ بعدَ الهزيمة،
وتلقَ هذينِ الكاذبينِ مِثْلَين؛
وإنْ يسلمْ لكَ البأسُ والرأس،
حين يفقدُهما كلُّ الآخرين.

إنْ تقوَ على كلٍّ ذاك
يدِنْ لكَ أبداً الملوكُ والآلهة، الحظُّ والنصر،
وتصبحْ أفضلَ من ذي مُلْكٍ سويّ
تصبحْ رجلاً، يا بُنيّ.

ر. كيبلنغ
(عن ترجمة اندره موروا)

٢- العيون

كم عيونٍ رأينَ الصّباحْ،
زرقاءَ أو سوداءَ، محبوباتٍ مِلاحْ!
العيونُ في قبرِها تهجع،
والشمسُ ما برحت تطلع.

كم عيونٍ فتنَتْها ليال،
ليالٍ منَ النهار أعذب.
العيونُ غرقى في الظِلال،
والنجمُ يسطعُ كاللّهب.

أفَقدَتْ بصرَها العيون؟
لا، لا، إنّ هذا لا يكون.
هو آخَرُ المنظور:
إنّه اللامنظور!
تغربُ عنّا الكواكب،
دون أن تهجرَ السّماء.
وللعيونِ مغارب،
وما مغاربُها الفناء.

أجل، نُغمضُها العيونَ، وترى،
تُبصرُ ما وراءَ الهاوية،
تَشخصُ إلى صبحٍ شاسعِ الأرجاء،
محبوبةً، مليحةً، زرقاءَ أو سوداء!

سولّي برودهوم

قصّتان

١- بين قفصين

فتاتان أحبّتا حارس القصر: مينا ابنة الأمير، ونالي وصيفتها. وآثر الحارسُ الأميرة.

وعلم الأمير بالأمر فاضطرب وهاج.

وذات صباح، احتشد أهل المدينة في باحة القصر، ووقف الحارس في الوسط، بين قفصين، وأطلّ أمير البلاد على الشرفة وصاح به: «أنت بين قفصين. في أحدهما أسدٌ ضارٍ، وفي الآخر وصيفة تهواك، فاخترْ أحدهما يفترسْك الأسد أو تقترنْ بالفتاة!».

اتّجهتِ الأنظار إلى الشاب، وإلى القفصين، وخيّم سكون رهيب.

ودار نظر الشاب من قفص إلى قفص: في أيّهما الأسد؟ وفي أيّهما الفتاة؟ وإنْ يعلمْ فما عساه يختار: أيموت ويُحرم مينا، أم يعيش ويخونها؟

ورفع الشاب عينيه كمن يستلهم الأقدار، فإذا الأميرة على شبّاك غرفتها، وإذا بها تشير إلى قفص اليمين... تشير وتختفي.

وجمد الشاب كالصنم، جمد يسأل النفس: ما عسى اختارت له مينا؟ ثم... اندفع فجأة بخطى واسعة، مضطربة... اندفع نحو قفص الشمال، وفتح الباب.

يا لدهشته! ما خرج أسدٌ ضارٍ، ولا مزّقته مخالب!... خرجت فتاة واجفة حييّة... خرجت نالي!

أخذ حارس القصر بيد الفتاة، ومشى يعلو وجهه الحبور، كأنّه انتظر ذاك اليوم منذ ألف عام!

٢٣-٦-٦٥

٢- مايا الجميلة

كان في قديم الزمان، في قرية طوى اسمها النسيان، حسناء لا كالحسان.

وكان اسم الحسناء مايا.

وذاع صيت مايا على كلّ تلّة، وفي كلّ واد، وتهامس بحسنها الوردُ والبيلسان.

وتقاطر الشبّان إلى دار مايا، وعفّروا عند قدميها الجباه، وقال كلّ بدوره: اطلبي شرط أن تقبلي!

وتدلّلت مايا، ما راقها منهم زوج: ما الذنب ذنبها، إنه دلّ الجمال.

ومرضت مايا. أدعا عليها العشّاق أم دعتِ الحاسدات؟ من يدري؟ مايا الجميلة مرضت، مرضت حتى أشفت على الموت.

كلّ أطباء الجوار آسوا مايا، وكلّ عجائز القرية أتوا بعصير الحشائش. وما درى طبيبٌ نوع الداء، ولا خفّف عصيرٌ وطأة المرض. وبقيت مايا في يد القدر، تغصّ إنْ ذكرتها الحناجر، وتُغَضّ إنْ رمقتها العيون.

وقالت مايا، قالت بصوت متردّد خافت: سأتزوّج من يجد لمرضي دواء. للظروف أحكام حتّى على مايا الجميلة.

وهبط دارَ مايا ثلاثة، هبطوا من الجوّ، آتين من أفقٍ قصيّ:

اسم أحدهم هامان، يملك عيناً سوداء، إنْ نظر بها رأى حتى أقاصي الأرض، وسمع صوت من يرى.

واسم الثاني نونوز، له بساط ريح، إنْ تمدّد عليه حمله إلى حيث يشاء.

واسم الثالث آمون، يملك قطرة من إكسير الحياة تشفي كلّ داء. هي قطرة واحدة على الأرض تلقّاها من جنيّ في إحدى ليالي الشتاء.

كان الثلاثة جالسين في ظلّ الصفصاف الباكي، على ضفّة نهر النِسرين، حين أخذ هامان عينه السوداء، ينظر إلى غرائب الأرض، ويحدّث بها رفيقيه. وفجأة سكت واضطرب: لقد رأى مايا على سرير النزع، وسمع وعدها بالزواج.

ودهش رفيقاه لسكوته واضطرابه، وسألاه عن السبب، فأطلعهما على ما رأى وسمع.

وأخذ آمون ونونوز العين السوداء، وأبصرا مايا الجميلة، أبصراها زهرة في حقل أذواها لفح الهجير.

وسكت الثلاثة... ثمّ التفت آمون إلى رفيقيه وقال: لديّ الدواء، فهل تحملني إليها، يا نونوز، وهل تهدينا الطريق، يا هامان؟

وأجاب الاثنان معاً: ونحن ما يكون نصيبنا، يا آمون؟

أطرق آمون هنيهة، وجالت في فكره خواطر، واضطربت منه أعصاب. ثمّ خطر له رأي، رأي سديد، فالتفت إلى رفيقيه وقال: نحمل الدواء إلى مايا، ومايا تختار منّا من تشاء.

وركب الثلاثة بساط الريح، وساروا بسرعة الهائم، وهبطوا دار مايا.

وشربت مايا الدواء، وفارقها المرض، واستوت مرحة نضرة كأمرح ما يكون النشاط، وانضر ما يزهو الربيع.

وأطلعها الثلاثة على عهدهم، وتباروا في الترغيب:

قال هامان: لولا عيني السوداء لقضيتِ فريسة المرض، وحُرمتِ بهجة الحياة. وستكون العين رهن أمرك ترين بها ما تشائين، لا يغرب عنك جمال، أو يفوت نظرك لون. تجلسين في فيء الصفصاف، على ضفّة نهر النسرين، تلهين بالدنيا وتنعمين.

وقال نونوز: ما نفع المعرفة دون القدرة. لولا بساط الريح لما حُمِل إليكِ دواء، ولا زال مرض. وما نفعُك إن تري غرائب الدنيا، وفِتَن العوالم؟ النفع في أن تجوبي الدنيا، وتطوي العوالم، في أن تلمسي بيدك، وتتحسّسي ما يطيب للاحساس. هذا بساط الريح، فاضطجعي عليه، ولنسبحْ معاً في الفضاء، نذهبْ أنّى نحبّ، ونحطّ حيث نشاء.

وقال آمون: ما قاله رفيقاي صحيح. لولا هامان لما عرفت، ولولا نونوز لما قدرت. وأنا ليس لديّ عين سوداء، أو بساط ريح. منيتي الكبرى سعادتك، فاختاري من تريدين منّا وتحبّين.

وسكت الثلاثة، وانتظروا جواب مايا.

وتمهّلت مايا، أطرقت رأسها، وغضّت طرفها، ثمّ قالت شبه ساهمة:

أنا مدينة بحياتي لكلّ واحد منكم، ولكم في عنقي جميل ثقيل، ولكن ما كلّكم في الفضل سواء.

أنت، يا هامان، رأيتني رؤيتك غيري من الأشياء، ففضلك في الأمر يسير. وعينك السوداء، التي ترى كلّ شيء، وتعرف كلّ بعيد، قد تغري غيري من الناس. ما عساني أرى ما لا أراه في بلادي، أو ما نفع أشكال وألوان لا دور لها في مصير الانسان؟

وأنت، يا نونوز، لقد تعبت في سبيلي، وجشّمت نفسك السفر الطويل. ولكنْ، أما قلت ان السفر على بساط الريح لذّة. فأحسبها سفرةً من سفراتك. أمّا الطيران فلا يغريني، والأجواء الغريبة لا تستهويني. سمائي سماء الكون، وأرضي أرضه. والقويّ في نظري ليس من تسلّق جبالاً، وحلّق فوق بحار، بل من زهد في كلِّ قدرة، إن ينفع زهده الناس.

أمّا أنت، يا آمون، فقد نطقت بالحقّ. أنت لمَ ترني، ولم تكن قادراً على الوصول إليّ. وأنت ما معك شيء، لا عين سوداء، ولا بساط ريح. لم يبقَ لديك شيء، لأنّك أعطيتني كلَّ شيء. وأنت لم تعطني دواء، يا آمون، كما يعطي الطبيب المريض، بل أعطيتني ما كان يضمن لك حياة جديدة، إذا ما دهم المرض العضال. حياتي التي كسبتُ هي حياتك التي فقدت، هي لك، فأنا لا أعطيك شيئاً حين أهب لك نفسي.

هكذا تكلّمت إحدى الحسان، في قديم الزمان. ما غرّها أن ترى كلَّ لون، ولا تطير في كلّ مصر. ما همّها أن تعرف، ولا همّها أن تقدر. أمر واحد سباها: العطاء الذي لا يدّخر شيئاً.

ونهضت مايا، وأخذت بيد آمون، وسارا.

سارا يتسلّقان التلال، ويهبطان السهول، إنْ رآهما الراعي غنّى على شبّابته، وإنْ لمحهما ناطور الكرم غضب وهدّد، ثمّ... هدأ، وقطف لهما العناقيد.

وكان الآس الغنج يضطجع تحت قدميهما، والبنفسج يرسل عرفه الحييّ.

الهنيهات

الهنيهات، ما أوهاها!
لفتة وداع، خفقة فؤاد،
صرخة ذعر، زفرة صدر،
غلق باب، فتح كتاب،
طرفة عين، نفحة عطر،
ذرّة هناء، ومضة ضياء...،
ومالي أُحصي ما يُعجِز الإحصاء؟!

والهنيهات، ما أغلاها:

لا إنجاز دون زمن،
والزمن هنيهات، إن تُضِعْها تضعْه،
تُضِعْك أنت!

جانٍ المستمهل، يستمهلك هنيهة فإذا هي ساعة،
يسمّرك كالوتر، يعقّمك،
يأكلُ من عمرك، يأكلك،
كأضرى الضواري، كأضرى وأطوى!

وأجنى أنت، إنْ تدعِ الهنيهاتِ تضيع،
تأكل عمرك، تأكلك ولا تدري،
تأكلك، ولا تأسف،
فهل في الناس من هو أسخف؟!

التراث

التراث، التراث الغالي،
نعرفه، ونحبّه، ونستوحيه،
ولكنْ حذارِ، حذارِ التحجّرَ فيه!

التراث نار ورماد،
فدعِ الرماد الميت،
وغذِّ النار... باليابس والأخضر!

التراث غذاء،
والمتغذّي يكبر، ويتطوّر،
ويتطوّر معه التراث... أو يموت، بل يموتانِ معاً!

التطوّر سنّة البشر، سنّة الكونِ والبشر،
فلا نهملْ ما منه تطوّرنا لئلاّ نفقد هويّتنا،
ولا نتحجّرْ فيه لئلّا نعيش في ماضيه،
في ما فاتت لياليه.

تطوّروا، أيّها الناس، أو موتوا،
ولا تماشوا الحياة، وأنتم رفات!

تطوّروا!

عالمٌ اللّه بكلّ ما في الكون، وكلٍّ ما في الانسان، عادلٌ في كلّ قضاء، فهل يرى كما يُقال لنا، ويعدل كما يُعدَل على أرضنا؟

لقد خطب ناصريُّه يوماً، وما مرَّ على شريعة موسى، – على شريعة الله نفسها – سوى ثلاثة عشر قرناً، خطب ينقض تلك الشريعة، ينقض أو يكمل: قيل لكم، وأقول!...

ولو عاد يخطب اليوم، وقد مرَّ على شريعته الجديدة عشرون قرناً، أفما كان يخطب، وينقض: قلتُ لكم، وأقول؟!...

كلّ شيء يتطوّر، العلم والفكر والفنّ، فكيف لا تتطوّر سبل الأخلاق؟

ألا نرى تراجع القيم القديمة، وتفاقم التناقض بين ما نعمل وما نقول، بل تفاقم الكفر في أكثر ما نقول؟

أوَليس الأمر كذلك لأنّا لا نطوّر مفاهيم فيسود اللّبس: نقول بمفاهيم، ونعمل بمفاهيم؟

علينا أن نطوّر مفاهيمنا: خلق اللّه الكون متطوّراً، وخلق الانسان متطوّراً، فهل يخلقنا متطوّرين، ونتحجّر، نتمسّك بمفاهيم نُعلنها أبديّة؟!

ألا تطوّروا، يا عبادَ اللّه، طوّروا فهمكم لكتبه نفسها: إفهموها على ما كان واقعُ عصرها، واقع الانسان، ثمّ على ما صار واقع عصرنا، ما صرنا نعرف من الكون، ومن الانسان. إفهموا، واجسروا، غيّروا وتغيّروا، لتظلّوا أبناء الحياة!

كلّ مفاهيم الأخلاق، ممّا تعلّم الأديان والفلسفات، قامت من أجل الانسان، من أجل كماله، وسعادته. وهي حتماً متطوّرة إذا ما تطوّر الانسان، وتغيّر، «فالسبتُ للانسان، لا الانسان للسبت» (مرقس ٢ : ٢٧).

والبليّة الكبرى أن يعيش إنسانُ اليوم على ما كان إنسانُ الأمس، أن يخاله يعيش، وهو ميت!

المنطق الواهي

اختير لبوذا خمسمائة فتاة جميلة، أجملُ خمسمائة فتاة هنديّة، وتزوّج أجملهن.

أنت تعجب من هذا الترف، من حرص بوذا على الزواج بأجمل هنديّة.

وأنت تسأل عمّا هو إلى العجب أدعى، تسأل عمّا كان مفهوم الجمال لدى من اختاروا أجمل خمسمائة هنديّة، وعمّا كان مفهومه لدى بوذا، إذِ اختار؟

أيكون الجمال حجماً، أو وزناً، أو مدى، فنكيلَه أو نزنَه، أو نقيس؟

أم يكون لوناً، أو نغماً، فنؤثرَ لونه على أيّ لون، ونغمه على أيّ نغم؟

أم يكون الشكلَ الجسديّ الخالص، ويكون لهذا الشكل مقاييس مقبولة، ولا يؤبه لفهم، أو شعور، أو سحر أنوثة، لا يُؤبه لكلّ ما يفتن، ويغري، ويستهوي؟

ثمّ هل كان ذوق بوذا جازماً، فما تردّد، اختار فتاة ورغب مطمئنّاً عن كلّ الباقيات؟

وهل أصاب بوذا في اختياره، هل اختار حقّاً أجمل الخمسمائة؟ وهل تكون، لو خُيِّرتَ مثله، من الخطإ أسلم؟

أم نحن نعود إلى المطلق والنسبيّ في كلّ حكم على الجمال، فنتبيّن ما هو نسبيّ فيه، ويستعصي علينا المطلق، ويرضى كلُّ فتى بجميلته، وكلُّ فتاةٍ بجميلها، ويلتبس القبح والجمال، أي لا يبقى قبيح وجميل؟

قد يؤدّي المنطق إلى هذه النتيجة، ولكن من يسلّم أنْ لا قبح ولا جمال؟! وكيف نظلّ نؤمن بالمنطق طريقاً إلى الحقّ، وإلى الجمال؟!

الجمال الضائع

الجمال ما تُعجَب به، لا ما ترغب فيه،
ما يَملكك، لا ما تملكه،
ما يُدهِشك، لا ما يغويك،
ما تَخشع له، لا ما تطمح فيه،
ما يُذهلك، لا ما يشغلك،
ما تَتأمّله، لا ما تعانقه.

الوردة عبَقٌ في الحديقة لا سلعة في سلّةٍ تُهدى.

خصر الهيفاء دقيق، ويغلظ إن تطوّقه ذراع.
غدائر السمراء سنابل، وتشعّثها الأنامل.
المغنّية فتنة الأسماع، لا السامعين.
أجود شعر الحبّ شعر عاشق مصدود.
أجمل الحبيبات ليلى العامريّة.

الجمال للتأمّل والعبادة، لا سلعة أو متعة،
فاحرصْ عليه حرص الزاهد،
احرص على صفائه، وبهائه، وبقائه.

ويأبى الراغب والهائم،
وفي السوق والملهى، وفي الموعد والملقى،
يُباع الجمال، ويُباح، يهون ويُضاع!

١٢-١١-١٩٩٤

أَحكامُنا

جاء في قصّة صينيّة:

أوى ذات ليلة خمسةُ أشخاص إلى كهف: راهب، ولصّ، ورسّام، وبخيل، وحكيم..

قال الراهب: أيمكن تصوّر مكان أفضل لتأمّل العابد؟
وقال اللصّ: يا له من ملجإ للخارج على القانون!
وهمس الرسّام: يا لها من موضوع للريشة هذه النواتئ الصخريّة، وهذه المشاعل بأنوارها والظلال!
وقال البخيل: نعمَ المكان مخبأ للكنوز!
واكتفى الحكيم بالقول: ما أجملَ هذا الكهف!

وهكذا تعكس أحكامنا مصالحنا، ونظراتنا الضيّقة!

لا تندمْ!

لا تندمْ، إذا ما صادقت،
ووجدتَ صديقك يوماً غيرَ صادق،

ولا تندمْ، إذا ما أحببت،
وألفيتَ حبيبَك يوماً لساناً دون قلب،

فأنتَ قد نعمت بأُنسِ الصداقة، ونشوة الحبّ،
ولو لم تُصدّقْ، وتُخدَعْ، لفاتاك كلاهما.
لا تأسفْ على عونٍ، أو وقتٍ، أو مال،
لا تأسفْ، ولا تندمْ، لا تحاسبْ أو تُعاتب،
فقد أعنتَ إنساناً، أسعدته وبه سعدت!

الفرح الشعبيّ

كان الشعب، إلى زمنٍ قريب، يرقص،
كان كلّه، أو سواده، يتعلّم رقصاتِه، ويرقص،
وإن تفاوتتِ القامات، والحركات، ومهارة الراقصين والراقصات.

وكان الشعب، إلى زمن قريب، يغنّي وهو يرقص، أو يغنّي متحلّقاً حول كأس، وكان الجمهور يترنّح على أغاني الميجنا والعتابا والمواليّا.

وكان الرقص والغناء رفيقَي الفرح،
رفيقَي الولادات، والأعراس، والحفاوات، وشتّى الحفلات،
بل كانا رفيقَي الحزن نفسه، والمأتم الكئيب المهيب.

وظهر الاحتراف، في المدينة والقرية، احتُرف الرقص والغناء، وأتقن الفنّانون الصناعتين، وشغلوا المسرح والشاشتين، فأدهشوا، وزهّدوا في الرقص الشعبيّ، والغناء الشعبيّ.

فهل نُهلِّل، لأنّ الفنّ الشعبيّ احتُرف وأُتقِن، أم نحزن لأنّ سواد الشعب أهمل رقصه وغناءَه، وما عاد يفرح، أو يعرف كيف يفرح؟!

قطرة

في البحر يستبدّ بي الموج، يرفعني ويخفضني، يوقفني ويدفعني، ويقذف بي، كلَّ فصل، على ساحل.

وفي الجوّ غمامٌ أنا، وتعصف بي الريح، تمزّقني البروق، ويُفزِعني الرعد، ثمّ تطرح بي السماء على الصخر والهشيم.

وفي البرّ يمصّني التراب، وتمصّني الأعشاب، وتمصّني الشفاه، كأنّي ما خُلقت إلاّ لأُمَصّ!

كلّ ما حولي قيود، تحكّم وتعسّف. ألا تفلّتٌ من شباك السجون، وخلوة في فراغ، لا جوار ولا حوار؟

خفّفي الشكوى، يا قطرةَ الغيث، فكلّنا رفيقُ أسرك!

جمال القمر

أنت قاحل، يا قمر،
لا زهر يطيّب أوداءَك،
ولا طير يزيّن أجواءَك.

أنت موحش، يا قمر،
لا صوت فيك ولا نغم،
وليس فيك إنسان،
أجمل ما ترى العين.

نورك وهم، يا قمر: إنّه نور
الشمس يتمرّغ عليك.

حسنك هالة الليل، يا قمر:
أرأيت عيناً تعبأ بك في النهار؟!

ومع ذاك، أنت جميل، يا قمر،
أجملُ ما نشبّه به.

جمالك معارٌ، يا قمر،
وكم في جمال ليلى من معار!

فنّ الكذب

عليك أن تقرّر ما الصدق لكي تكذب
ليتشه

فنّ الكذب فنّ صعب، وقد يكون من أصعب الفنون.

هو صعب، لأنّ من شرط الكلام الصادق أن يكون معقولاً، والكذوب قد يخترع، ويضخّم، ويجوز المألوف، فيشكّ السامع في صدق ما يسمع.

وهو صعب، لأنّ الانسان ينسى، فيقول اليوم نقيض ما قال بالأمس، فتيقّنْ، قبل أن تكذب، أنك لن تسنى، ومَنِ الذي لا ينسى؟

وهو صعب، لأنّ من الناس من يصعب عليهم تكذيب الكذوب، فيتظاهرون بتصديقه، يقابلون كذبه بالكذب عليه، فيتوهّم في الناس السذاجة والبلاهة، ويتمادى في الكذب، فيفضح نفسه من حيث لا يدري.

وأسوأ الكذب ما صار لدى صاحبه عادة، وعُرِف صاحبهِ به، فيحجم الناس عن تصديقه، ولو صدق.

وأوجع الكذب كذبُ من تحبّه صادقاً، وتعلم كذبه في حبّه لك.

لا تكذبْ، فالكذب شأن الجبان، والخائف، والعاجز، والمخادع.

وصدّقني فإني لا أكذب عليك!

تُدخِّنين

إلى ل.م.

تُدخِّنين، وتُدخِّنين، أفتدرين ما تفعلين؟

أنفاسُكِ... ستنتنُ الأنفاس،
فهلاّ حرصتِ على شذاك، شذا البنفسج والآس؟

وستصفرّ الشفتان والأسنان،
فهل يفترّ الثغر، إذا ما أقبل المعجبون، عن ابتسامةٍ هازئة صفراء؟!

وسيطفو الدخان إلى المحاجر، يطمس تألّق الأحداق،
ويشعّث الأهداب، فهلاّ خشيتِ زهد المفتون باستواء الأهداب،
وتألّق العيون؟

وستعطب الرئتان فتسعلان وتسعلان، وتتفلين – رئتيكِ تتفلين!
– فهل توقظين الزوج بالسعال، أو توقظينه بسَعلةٍ وتَفلة، وتُغْنيان
عن قُبلة الصباح؟!

وهلاّ أفزعكِ الداءُ العضال، ومأساةُ الفراق والزوال، وحسرة
عُبّاد الجمال؟

وهل ستظلّين والتبغ نارين، يُحرقك وتحرقينه؟
إنّ للتبغ مثيله في الحوانيت، ولكن أنّى لك المثيلات، في الأرض
أو في السماوات؟ وإنْ يكن فهل هنّ في المبيعات؟

أصغتِ الحسناء إلى كلّ هذا التحذير فأشفقت على جمالها، وحرصت على الحبّ والحبيب، فاستوت وقالت: لن أدَخّن!

قالت... وفعلت.

ولكنْ ما مرّت على الوعد أسابيع... حتّى عبثت الحسناء بوعدها، عبثت بجمالها والحبّ، وعادت إلى التبغ الفارغ السخيف، تُحرِقه ويُحرِقها!

وصدّقْ، يا إنسان، وعود الغواني الحسان!

جمال المرأة وقبحها

جمال المرأة قناع سخفها،
وذكاؤها قناع قبحها.

والويل للرجال، إذا اجتمع الذكاء والجمال!
والمصيبة أدهى، إذا اجتمع القبح والسخف!

في راشانا

في راشانا ثروة فنيّة، هي منحوتات الإخوة «البصابصة».

وقد زرتُها، بصحبة تلميذاتي في صف الفلسفة، بتاريخ ٢٦-٥-٧٧. وكان ميشال ويوسف غائبين، فاستقبلنا ألفريد، استقبلنا ببساطة ابن الريف، وصبر النحّات، وهدوء من ألف استقبال الزائرين.

دار بنا بين المنحوتات نتأمّلها، ونتوقّف أمامها، كلٌّ تستوقفه منحوتة أو منحوتات. وبعد حوالى ساعتين، جلسنا حوله، وبدأنا نسأل:

١- هل لنا أن نعرف شيئاً عن تكوّن الإخوة الفنيّ؟

- ظهر ميل ميشال إلى تذوّق الأشكال باكراً جدًّا، ففي السادسة استعمل الشمع لخلق أشكال، وفي الرابعة عشرة أقدم على نحت مذبح. وقد درس فنّ النحت في أكاديميّة بيروت، ثمّ في باريس.

وألفريد تتلمذ على يدَي ميشال، ثمّ درس سنة في معهد الفنون الجميلة في باريس. ويوسف اكتفى بمدرسة أخويه.

٢- أميشال هو القدوة؟

- ميشال اكتشف المواهب، وشجّع، إنّما لكلٍّ خطّه الخاصّ: ميشال يؤثر الشكل الهندسيّ المستقيم، والتجريديّ؛ وألفرد يؤثر

الشكل المبروم، وينحت تماثيل بشريّة؛ ويوسف يؤثر الشكل الهندسيّ، مع ميل إلى الزخرف، وقد تفوّق على أخويه في سباقين.

٣- هل أنتم مؤسّسو مدرسة في النحت أم أتباع مدرسة؟

- نحن مؤسّسو مدرسة. ما نقوم به جديد في لبنان، وفي العالم، وإنْ يكن الفنّ التجريديّ شائعاً في أنحاء العالم.

٤- من أين تأتون بالحجر؟

- من كلّ مكان: من لبنان، من إيطالية، من الأردنّ... إنّما نؤثر الحجر اللبنانيّ، فالحجر الغريب أبعد عن شعورنا، غريب...

٥- ما الوقت اللازم لإنهاء منحوتة؟

- يتراوح ما بين شهر وأربعة، حسب حجم الحجر، ونوعه، وحسب الموضوع ورغبة النحّات...

٦- كم ساعة يعمل واحدكم يوميًّا؟

- قد نعمل سبع ساعات في النهار.

٧- هل تعبّر منحوتاتكم عن أفكار؟

- بعضها يعبّر: عن إخلاص، عن تضامن، عن حبّ (زوجان في منحوتة، أو حبيبان)

٨- هل تساوي فنّياً بين منحوتة كلاسيكيّة تعبّر عن فكر إنسانيّ أو شعور، وبين منحوتة تجريديّة؟

- في المنحوتة التجريديّة حياة، روح... أو لا تكون جميلة.

وإن تقارن يمكن القول: المنحوتة الكلاسيكيّة جواب عن سؤال، أمّا المنحوتة التجريديّة فسؤال ينتظر جواباً. أوليس السؤال أخصب؟ والفنُّ التجريديّ فنّ العصر، أقرب إلى الأذواق، وأقل تقييداً لحريّة الفنّان.

٩- هل من منحوتة هي أحبّ إليك بين كلّ منحوتاتك؟

- هي منحوتة ما زلت أحلم بها، وأسعى لتحقيقها.

- تنحتها، وتكسر الأزميل، وتقف عن النحت، كما فعل بجماليون، إذ نحت غلاتيا؟

- ابتسامة.. (لا جواب)

١٠- ما مقياس حبّك لمنحوتة؟

- نجاحها.

١١- أين عرضتم منحوتاتكم؟

- في لبنان، وباريس، ولندن، واليابان، والولايات المتحدة... وكانت معارضنا ناجحة.

١٢- وما مقياس النجاح؟

- تذوّق الجمهور للمنحوتات، التحدّث بها... شراؤها.

١٣- ما معدّل المردود السنويّ لمبيعاتكم؟

- أثناء هذه الحرب، لا شيء. قبلها كان يتراوح المردود ما بين ٥ و ٢٥ ألف ليرة لبنانية.[١]

١- كان سعر الدولار الأميركيّ حوالى ليرتين لبنانيّتين.

١٤ – ما أغلى منحوتة، وما أرخص؟

– بيعت أغلى منحوتة بمبلغ ٤٥ ألف ليرة لبنانيّة. ولدينا منحوتات بمبلغ خمسمائة ليرة.

١٥ – أتحبّ منحوتاتك، وتبيعها؟

– السؤال محرج. حين عرضت ٣٥ منحوتة، وبيعت، تمنّيت لو لم يُشترَ بعضُها.

١٦ – لو تأمّنت لك سبل العيش، هل كنت تمتنع عن البيع؟

– الفنّان أنانيّ، وقد يبيع طلباً للشهرة، ليصبح فنّاناً عالميّاً.

١٧ – ألمنحوتاتك أسماء أم تعمل بقول نزار قباني: أسخف ما نحمل الاسماء؟

– لست اسمّي. في باريس تطوّع جورج شحاده لتسمية منحوتات المعرض، واستعصت عليه واحدة فسمّاها: مدام x!

١٨ – قيل إنّ دي فنشي بدأ يرسم رجلاً، فرسم... موناليزا! أيحدث لك مثلُ هذا؟

– من رجل إلى امرأة: لا. إنّما قد يتيغيّر الاتجاه أثناءَ العمل التجريديّ.

١٩ – هل من نحّاتين كبار في لبنان، ما عدا «البصابصة»؟

– أعرف نحّاتاً واحداً: سلوى روضه.

٢٠- هل عرف التاريخ نحّاتات؟

- لا أعلم. إنّما في العالم، اليوم، نحّاتات.

٢١- أليس النحت شاقّاً بالنسبة إلى الفتاة؟ هل تنصحها؟

- كلّ النصح. تستطيع أن تستعين بعامل، وأن تستعمل غير الحجر.

٢٢- هل من نحّاتين كبار في العالم العربيّ؟

- أعرف جواد سليم العراقيّ.

٢٣- من أكبر نحّاتي التاريخ، في نظرك؟

- ميكالنج، رودين، مُور (Morre).

توقّفنا هنا، وتواعدنا على لقاء آخر... في راشانا.

٢٦-٥-٧٧

طاغور الشاعر[1]

من أنت يا من تقرأ شعري بعد مئة عام؟

طاغور

كلّفوه الدرس صبيًّا، فجمح، وعصى،

ولقّنه رفيقٌ وزنَ شعر، فنظمه ابنَ ثمانٍ، وملأ دفتراً أزرق، وراح يُنشده الأهل والأصدقاء.

سيشكر الله، عهد النضج، لأنّ «أمواج النِسيان الرؤوف طوت دفتره الأرزق، ونجّته من خطر الظهور في وادي الدموع هذا!»، ولكنّها دواوين من الشعر ستطلّ على الناس، ولن يقوى عليها قدم أو نِسيان!

شعر طاغور كمٌّ ونوع، غنى ألوان وكنوز جمال، فكيف الإحصاء والاستقصاء، في مدى محدود؟ كلُّ همّي أن ألمّ بهذا الشعر إلماماً، علّي أثير إعجاباً، وأدفع إلى استزادة.

أوّل ما يغري في طاغور سموّه بالشعر إلى مناسك الحكمة، أو هبوطه بالحكمة إلى جنان الشعر، فإذا الجمال يعمُق في القصيد، والفكر يزدهي بالألوان.

١- ألقيت في قاعة اليونسكو، في الذكرى المئويّة لمولد طاغور.

في نظرة الهندوسيّه إلى الكون أنّ الوجود واحد، خفيُّه إله، وظاهره شكل وخطّ. وإنْ شعرُ طاغور إلّا صدى لهذا الازدواج: الفكر يسبرُ الأغوار، والأداء يحفِل بالأضواء والظلال، فإذا العاج يرفُل في مسكٍ وبِرفير.

زعم بعضهم أنّ الشعر والحكمة لا يلتقيان، ولكن ما يَضير الحكمة ان هي ازدانت بالحلى، وهل يسُفّ الشعر إنْ يُصبحْ أكثر من كلم؟

«ألا أدنُ منا، أيها الشاب

وأصدقْنا القول:

لمَ هذا الجنونُ في عينيك؟

– لست أدري أيَّ أفيونٍ شربت، فبدا هذا الجنون في عينيّ.

– آهِ، يا للعار!

– أجل، بعض الناس عقلاء، وبعضهم مجانين، بعضهم يحسِب للغد، وبعضهم لا يحفِل بآت، بعض العيون تبتسم، وبعضها تبكي، أمّا أنا فالجنون في عيني!

أيها الشاب،

لماذا تقف هكذا جامداً في ظلّ الشجر؟

– قدماي تنوءانِ بحبّ قلبي، لهذا أقف جامداً في الظلّ.

– آهِ، يا للعار!

– أجل، بعضهم يوالي سيره، وبعضهم يبطئ، بعضهم حرّ، وبعضهم مكبّلٌ بالقيود، أما أنا فقدماي تنوءانِ بحملِ قلبي.»

تُرى ما هذا،
أشعر أم حكمة؟
أم جمعٌ بينهما أنيق؟

ثاني ما يروق في طاغور إيثاره الايحاء على التحليل، والظلّ الخافت على شمس الهجير.

إنّه لا يجترّ الخاطر، لا يستقصي ولا يستنفد، بل يدع مجالاتٍ للتفهم، والتأمّل، والغوص العميق. لا إسراف في الوضوح، ولا اسراف في الغموض، بل تلاؤم بينهما سويّ يفهمه ذووه، والفنّ لمن يستسيغ.

على أنّ غموض طاغور ليس تعقيد صِياغة، أو إغراب ألفاظ، بل غموض عبيرٍ في واد، أو بسمةٍ على ثغر، أو غموض من يدُلّك على السماء، ويتركك تكتشف النجوم. تراهن مرّةً صديقان على معنى قصيدة لطاغور عِنوانها «الصدى» وقصداه يسألانه شرحها، فأجابهما بكلّ بساطة أنّه عاجز عن الشرح! إنّه يعجَز لأنّ من الأمور ما هو ذوق لا بيان، شعور في النفس، لا مقدّمة في برهان.

وإنّ غموض طاغور، وما في هذا الغموض من إيحاء، لَبابٌ مشرعٌ على آماد، ودرٌّ يُغاص عليه:

«ما حديثك، أيّها البحر؟

– حديثُ السؤالِ الأبديّ.

ما جوابكِ، أيّتها السماء؟

– جوابُ الصمت الأبديّ!»

أو هذا الحِوار الآخَر:

قالت الحُباحبُ للنجوم: يقول العلماء إنّ نوركِ سيخبو يوماً.

فلم تجبِ النجوم!

ثالث ما يستهوي في طاغور خيال شرقيّ غنيّ، حافل بالظلال والأشكال، عابق بالعرف والنغم، من وشيه ينسُج اليراع، وفي شذاه يميس النشيد.

ليس من خصائص هذا الخيال أن يسرف في إعلاء البناء، أو أن يسرف في مدى القصيد، ولكنْ من هباته، إن يعرِض خاطر أو شعور، أن يختار لهما اللون والشكل، وأن يسكُبَهما في كلٍّ لا خفوت فيه ولا نتوء. عطر الوادي ونسمة الغاب، غيمة الربيع ونزع الغروب، همسة الغدير وحنين الناي... كلّ هذا مادّة تنغيم وتلوين.

ألا اسمعوا الشاعر يصف فتاة هنديّة – وكأنّها لبنانيّة – ذهبت لتملأ الجرّة من العين، وقلبها أفرغ من جرّتها:

«لماذا تجلِسين هنا،
تلعبين بسِوارك، وتعبثين؟
املأي جرّتك،
فقد حان العود إلى البيت!

لماذا تعبث بالماء يداكِ،
ويعبث نظرك الشرود،
باحثاً عن قادمٍ في الطريق؟
املئي جرّتك،
وعودي إلى البيت!»

عبر الصباح،
والماء القاتم يجري.
الأمواج تضحك، تعبث، وتتهامس.
الغيوم التائهة تتراكم في الأفق،

فوق هاتيك التلال: إنّها ترنو إلى محيّاك، تبسم له، وتلهو.
املأي جرّتك،
وعودي إلى البيت!»

أرأيتم كيف أحاط هذه الفتاة، المتمهّلة في انتظار قادم، بأمواج تضحك وتتهامس وغيوم تبتسم وتلهو، وصباح يعبر، وماء قاتم يمرّ؟

إنّها لوحةٌ تامّة لا ينقُصُها سوى ريشة رسّام.

رابع ما يعجب في طاغور تنوّع الأغراض، على اتسامها كلّها بطابع الشعر.

هو الحسّ يخفُق لكلّ لون، والشعور يرجّع كلّ صدى، فإذا طاغور شاعر في القصيد والنشيد، في المسرح والقصة، في كلّ ما يقطُرُ به المداد.

وهنا لا بدّ من الاهمال، من الاقتصار من هذا الشعر على بعض ألوان.

ولنبدأ بالطفولة، بديوان «الهلال»، حيث يتحدّث طاغور عن الأطفال كما لم يتحدّث أبٌ أو أم. وبين كلّ شاعرٍ وطفلٍ نسبَ: إنّهما يحسّان الكون، كلّ صباح، كأنّهما يحسّانه لأوّل مرّة، في فجر الخليقة البكر.

طفل طاغور حلم الام، وعرف حبّها، ونضارة أعضائها، وأغلى هدايا السماء. الحبر على وجهه ظلال على قمر، وثوبه الممزّق أسمال غيوم. صدر الأم له فراش، وسجن ذراعيها أشهى حريّة، وحبّها أثمن كنز... حلمه أن يتحوّل زهرة عبيرها يغمر أمّه أثناء الصلاة، وظلّها يتهادى على حروفٍ تقرأها، أو أن يصبح تاجراً يكسِب لأمّه الذهب، ويزيّن جيدها باللؤلؤ والياقوت...

أمّا الأب فأبعد عن هذا الطفل: إنّه غارق في الأرقام يجمع الفضّة والذهب - لَعِبَ الأولاد الكبار -، أو غارقٌ في تأليفٍ غامض، لا يعرف أن يقُصّ الحكايات:

«تقولين إنّ أبي يكتب كتباً كثيرة،
فأنا لست أفهم ما يكتب.

قضى المساء يقرأ لكِ ما كتب،
فهل فهمتِ حقيقةً ما يعني؟

ما أجملَ حكاياتٍ تحكينها، يا أمّاه! أسأل لماذا لا يكتب أبي مثلها: ألم يسمع هو من أمّه حكاياتِ العمالقة، والجنّ، والأميرات؟ تُراه نسيها كلّها؟...

حين أتناول يراعَ أبي أو قلمه، واكتب على أوراقه مثل ما يكتب تماماً: ا ب ت ث ج ح خ د، لماذا تغضَبين، أمّي، عليّ؟ إنّك لا تقولين شيئاً حين يكتب هو!

يبذّر أبي كوماتٍ من الورق، فلا تظهرين، أمّاه، أيَّ مبالاة.

وآخذ ورقةً واحدة، لأسوّي منها مركباً، فتصرُخين بي: يا لكَ من صبيٍّ مزعج!

ما عساكِ تفكّرين بأبي، إذ يأخذ أوراقاً تلو أوراق، يكسوها رسوماً سوداء، على كلا الصفحتين.»

بعد الطفولة الشباب،
ومع الشباب الهوى، الأملُ المنشود...
أهمّ ما نظم طاغور في الحبّ ديوانُه «حارس الروض»: إنّه حارس حديقة الملِكة، يصون عُشب طريقها نضراً، ويزيّن بالزهر ذراعيها، ويمسح بشفتيه غبار رجليها.

ولكنْ ما يحبُّ الرجل في المرأة؟

يرى طاغور أنّ نصف جمال المرأة من نسيج خيال الرجل، من نسيج شهوته وحُلمه وفنّه:

«ما انفرد الله في صُنعك، أيّتها المرأة،
بل شاركه في ذلك الرجال: إنّهم يزيّنونك أبداً بجمال قلوبهم.
الشعراء ينسِجون لك كساء من خيوط خيالهم الذهبيّ.
الرسّامون يهبون لشكلك خلوداً متجدّداً.

من أجل زينتكِ وكسائك،

يهبُ البحر لآلئه، والمناجمُ ذهبها، وجِنانُ الصيف أزهارها.

شهوات قلوب الرجال تضفي مجدَها على شبابك.

إنّ نصفك امرأة، ونصفك حُلم.

وقد يذهب طاغور إلى أبعدَ من ذلك، فيرى أن كلَّ جمال المرأة غريبٌ عنها: هو جمال الألوهة يدفِق من قلب الكون، فبعكسه محيّا، ويخلُب النور المعكوس قلوب المحبّين. فنحن إذاً نحبّ هذا النور، لا الوجه الذي يعكِسه، ونحاول عبثاً أن نمسك الجمال إذ نمسك الجسد:

«أمسكتها بيديها، (وضممتها إلى صدري).
حاولت أن أملأ ذراعيَّ من سحرها،
أن أرشُف (بشفتيَّ) ابتِسامتها الحلوة،
أن أنهل (بعينيّ) نظراتِها الظليلة.

ولكنْ أين كلّ هذا؟

من ذا يستطيع أن يستقطر زُرقة السماء؟

حاولت أن أمسك الجمال، فأفلت،
ولم يبقَ بين يديّ سوى الجسد.
يائساً تعبان أقفلُ راجعاً.
أنّى للجسد أن يلمُسَ زهرة لا يقوى على لمسها غيرُ الروح؟»

وإذا كان كلُّ جمال هو، في النهاية، جمالَ الله، أو بعضَ صداه، فلمَ لا نقصِد اليَنْبوع؟

وهنا نصل إلى الشاعر الصوفيّ، شاعر الحب الالهيّ، الذي غنّاه في كثير من شعره، سيما في ديوانيه: قربان الأغاني، وجنى الثمار.

ليس إله طاغور كائناً قابعاً في السماء، بل هو إله الهندوسيّة، المتجلّي في كلّ كائن، الماثل في كلّ شكل، هو الحبيب الذي ينتظر تحرّرنا من عالم الأشكال والألوان، وعودتنا إليه عودة قطرات الندى إلى خِضمّ البحر الأعظم.

في أساس التصوّف الهندوسيّ اعتقادُ الهند بوحدة الوجود، ولكنْ ليس كلّ هندوسي صوفيًّا، لأنّ الاعتقاد العقليّ بوحدة الوجود شيء، ودعوى الشعور بها ذوقاً شيء آخر.

لهذا، لست أعتقد أنّ طاغور ذاق الحالة الصوفيّة، كما ذاقها راماكريشنا، مثلاً، الذي كان يبكي يوم لا يحسّ الله كامٍ له.

وإنّما تصوّف طاغور تصوّف شاعر يستوحي عقيدة الهندوسيّة في وحدة الوجود، فيمدّ أسلاكاً بين الكائنات، ثمّ يشُدُّ هذه الأسلاك أوتارَ معزفٍ كونيّ يُوْقِعُ عليه ألحانه، أو صلاتِ قربى بين الناس تنبِذ القوميّات، وتهدِم الحدود، وتجمع الانسان وأخاه موجتين دفعهما البحر الأكبر إلى الشاطئ، وسيضُمُّهما بعد فترة في غمره الهادئ الرَحب.

ومع ذاك تجد في هذا التصوّف الشعريّ معالمَ كلِّ تصوّف من زهدٍ في الدنيا، وهيام بالألوهة، وظمإٍ إلى ساعة اللقاء، وحنين لا يدانيه حنين:

«ألم تسمع وقع أقدامه الصامتة؟

إنه آتٍ، آتٍ، آتٍ أبداً..

في كلّ ثانية وزمان، في كلّ ليل ونهار،

هو آتٍ، آتٍ، آتٍ أبداً.

كم غنّيتُ من نشيد،

وكلّ أغانيّ نغمةٌ واحدة:

هو آتٍ، آتٍ، آتٍ، أبداً.

في شمس نيسانَ العابق بالعطور،
وعلى مسالكِ الغاب الضيّقة،

هو آتٍ، آتٍ، آتٍ أبداً.

في ليالي تمّوز العاصفة السّوداء،
وعلى قاصف مركبة الغيوم،

هو آتٍ، آتٍ، آتٍ أبداً...»

هذه كلمات في شعر طاغور،
في عمق قصيده،
ومدى إيحائه،
وخِصب خياله،
وثراء أغراضه.

وإنّها لأداةٌ هزيل، أداءُ زهرة واحدة عمّا حوى بستانُ الزهور.

فادخلوا الأسوار،
وانعموا باللون والشذى!

بيروت في ٦٢/٣/٦

مساء

مساء الانسان، ومسائي، مفقودان، وكآبتان:
المفقود الأوّل ما مضى من العمر، والمفقود الثاني ما هو ماضٍ إلى القبر.

والكآبة الأولى كآبة من أضاع أغلاه، والكآبة الثانية كآبة من سيُضيع كلَّ ما هو، وكلّ ما حواه.

مفقودان يختصرانك وكآبتان... ثمّ يلفّك النسيان، يلفّك النسيان!

ما يخبّئ الغد؟

الكهنوت والتعليم والتأليف أهمّ أحداث حياتي.

الكاهن يتابع خدمة أهل اللقلوق صيفاً.

والمعلّم توقّف عن التعليم تدريجيّاً منذ ١٩٦٧، وكلّياً سنة ١٩٨٧

أمّا المؤلّف فقد تفرّغ للقراءة والكتابة، يقرأ ما هو ألصق بمشكلات العصر ومناحيه، ويكتب ما يسنح للفكر، وتوحي به الأيّام.

وأقدّر، إذا لم يحدث مفاجئ، أنّي سأتابع نمط حياتي هذا ما امتدّ بي العمر، وأمدّت الطاقات.

قلق

قلَقٌ يساور، ولا يغادر:
قلق على صحّتي ممّا هو معروف، أو مَخوف.
وقلق على راحتي، فقد تخفت أسبابها.
وقلق من جفاء، أو عداء، ليس لهما في ظنّي سبب.
وقلق من خطر الوحشة، فالعمر بالأخطار نذير.
وقلق على الحرّيّة في بلادي، وعلى الثقافة والسلام.
وقلق على مآلِ الانسان في الآتي من الأزمان.
وقلق على مؤلّفاتي بعد مماتي.
وقلق ممّا سوف يلقاني، إذا لاقيت ديّاني.
وأحاول الهرب من قلقي، أغرق في كتابة أو كتاب.
ولكنّ القلق لا يغادر...، ويحسبني الناس هادئاً مطمئنّاً، يحسبون ويعجبون!

عامي الثمانون

أبدأ اليوم عامي الثمانين، ولا أردّد بيت زهير:

سئمتُ تكاليف الحياة، ومن يعشْ   ثمانين حولاً، لا أبا لك، يسأمِ

فأنا ما سئمت الحياة، ولا خشيتُ عليها يوماً خشيتي اليوم.

١٠ نيسان ١٩٩٠

موت الذئب[1]

... وفيما الذئبُ يلحس دمَه،
السائلَ من فمه،
ودون أن يدريَ ما الذي أودى به،
ودونَ صخبٍ وصرخات،
أغمضَ عينيه... ومات!..

ورحتُ أفكّر، شعرتُ بالهوان:
أنحمل اسمنا العظيم هذا، اسمَ الانسان،
ولا نعرف كيف نفارق الحياة،
وبلايا الحياة،
معرفةَ هذا الحيوان؟!

إنْ نعرف ما كنّا على هذه الأرض،
وما فيها نُخلِّف،

١- خرج الشاعر إلى الصيد بصحبة رفقاء، فلقوا ذئباً. صرعوه بالرصاص، ومزّقوه بالخناجر، وشاهدوه يموت.
نظم الشاعر هذه القصيدة يصف فيها هذا الحادث معبّراً عن إعجابه بهدوء الذئب المنازع، وبموته الصامت الهادئ صمتَ رواقيٍّ وهدوئه.
نقلنا من قصيدته هذه ما جاء في وصف موت الذئب، وما في تلك الميتة من عبر.

كان الصمت وحدَه عظيماً،
وضعفاً كلٌّ ما سواه!

بلى، لقد أدركتُ ما أنت،
أيّها الوحش المسافر،
ونظراتُك الأخيرة أصابت من قلبي الصميم،
وكلُّها تعني:
إنْ تقدرْ فادرسْ وفكّرْ،
إبلغْ مبلغي، أنا ابن الغاب،

ابلغْ هذا المستوى السامي،
مستوى الرواقيِّ العتيّ!

لا تصرخْ، ولا تبكِ، ولا تصلِّ،
فهذا كلُّه شأنُ الجبان،

بل قمْ بعملك الثقيل، الطويل،
بعزمٍ قم به، على ما اتّفق لك من سبيل،
ثمّ اقتدِ بي:

تألّمْ، ومُتْ، ولا تتكلّمْ!

ألفريد دي فينيي

ظهر للمؤلّف

- أصول الفلسفة العربيّة
- فلاسفة العرب (١٠ أعداد)
- الفلسفة العربيّة في كبرى قضاياها
- حوارات
- ما أمسي وما غدي (في التطوّر الانساني)
- أفياء
- الزمان ذلك النحّات
- نيتشه، نبيّ المتفوّق
- غانديَ رسول اللاعنف
- جبران في الميزان
- الهند إن شدت وهدت (كتاب في ثمانية كتب)[1]
- جبران ونيتشه
- فكّر معي
- في الثقافة وثقافة لبنان.
- السعادة امرأة
- الانجيل وأعمال الرسل (تعريب)
- نشيد الأناشيد (تعريب)
- جنى الثمار لطاغور (تعريب)
- لاوتسو، حكيم الصين: الطريق وطاقته (تعريب)
- أجمل الشعر العربيّ
- من كلّ وادٍ شذاه
- شعر صينيّ (تعريب)

(١) ظهر قربان الأغاني لطاغور سنة ١٩٤٨، وظهر طاغور (مسرح وشعر) سنة ١٩٦٧.

المحتوى

من كلِ وادٍ شذاه ٧
المقامة اللبنانيّة ٩
يا موسى لبنان ١١
من أصداء حربنا الأهليّة ١٥
مجانين ١٧
ملجأ الملاجئ ١٩
آمن باثنين ٢١
سنندم! ٢٣
أبجديّتنا ووحدتنا ٢٥
نقــلان ٢٧
١- نشيد العزم ٢٧
٢- العيون ٢٩
قصّــتان ٣١
١- بين قفصين ٣١
٢- مايا الجميلة ٣٣
خــواطــر ٣٩
الهنيهات ٣٩
التراث ٤٠
تطوّروا! ٤١

المنطق الواهي ٤٣
الجمال الضائع ٤٥
أحكامُنا ٤٦
لا تندمْ! ٤٧
الفرح الشعبيّ ٤٨
قطرة ٤٩
جمال القمر ٥٠
فنّ الكذب ٥١
تُدخِّنين ٥٢
جمال المرأة وقبحها ٥٤
في راشانا ٥٥
طاغور الشاعر ٦٠
مساء ٧٠
ما يخبّئ الغد؟ ٧١
قلق ٧٢
عامي الثمانون ٧٣
موت الذئب ٧٤
ظهر للمؤلّف ٧٧




ISBN 9953-418-83-7